بريطانيا العظمى والشرق الأدنى

لا يأتى الكاتب بجديد حين يقول إن خطورة الصِّلات بين بريطانيا العظمى والشرق الأدنى إنما أخذت تظهر وتشتد فى الأعوام الأخيرة من القرن الثامن عشر ، حين عظم الخلاف بين فرنسا الثائرة المجددة وبريطانيا العظمى المعتدلة المحافظة ، وحين اعتزم بونابرت أن يقطع على البريطانيين طريقهم إلى الهند فأغار على مصر ، وهمَّ أن يغير على الشرق الأدنى كله ، ثم أدركه الإخفاق ، فعاد إلى فرنسا وترك جيشه الذى لم يلبث أن صالح خصومه وعاد هو أيضاً إلى وطنه الثائر المضطرب .

منذ ذلك الوقت أصبح الشرق الأدنى ميداناً للتنافس بين الدولتين الغربيتين . ولكن مؤثرات مختلفة دعت إلى أن يكتب الفوز السياسى والاقتصادى والعسكرى أيضاً لبريطانيا العظمى فى هذا الميدان . فقد شغلت فرنسا بشؤونها الداخلية من جهة وبشؤون أوربا من جهة أخرى معظم القرن التاسع عشر ، قامت فيها الإمبراطورية الأولى وما شبَّه نابوليون من الحروب ، وانتهت بالكارثة التى أرسلت نابوليون إلى « سانت هيلين » وأخضعت فرنسا لاحتلال المنتصرين . ثم جعل الصراع بين الثورة الفرنسية والنظام القديم يأخذ أشكاله المختلفة المعروفة ، حتى أنشئت الجمهورية الثانية ، ثم الإمبراطورية الثانية ؛ ثم كانت الحرب مع بروسيا ، ثم كانت الهزيمة واحتلال الألمان لفرنسا ، ثم كانت الجمهورية الثالثة ، واتجه الفرنسيون إلى إنشاء إمبراطوريتهم فى أفريقيا وآسيا . ولكنهم فى كل هذه الفترة لم يخاصموا البريطانيين فى شؤون الشرق الأدنى إلا قليلا ، كما أنهم لم يعاونوهم فى هذه الشؤون إلا قليلا .

وفى أثناء هذه الفترة أيضا تطور الشرق الأدنى نفسه تطوراً داخليا خطيراً ، أيقظه اختصام الفرنسيين والبريطانيين من حوله واتخاذه موضوعا للنزاع ؛ فنشأت الدولة المصرية ، وكان من الصراع بينها وبين الترك ما زاد يقظة الشرق

الأدنى قوة وبأساً ، وجعله عنصراً أساسياً فعالا فى الخصومة بين الفرنسيين والبريطانيين .

وليس من شك فى أن سياسة محمد علىّ الكبير كانت عاملا بعيد الأثر فى خصومة الدولتين الغربيتين . وليس هنا موضع التفصيل للتنافس البريطانى الفرنسى وتأثير الشرق الأدنى نفسه فى هذا التنافس . ولكننا نستطيع أن نلاحظ أن الصلة بين بريطانيا العظمى والشرق الأدنى قد مرت بأطوار مختلفة منذ أغار بونابرت على مصر إلى الآن . وكان مظهر بريطانيا العظمى فى الطور الأول من هذه الأطوار مظهر الصديق للدولة العثمانية المحافظ على سلامتها الذى يريد أن يردّ عنها عدوان الفرنسيين . ثم كان مظهرها فى الوقت نفسه مظهر الصديق للشرق ولمصر خاصة ، فهو قد أعان على تحرير مصر من الاحتلال الفرنسى ومهد بذلك لإنشاء الدولة المصرية الحديثة . ولأمرٍ ما لم تُلْقِ مصر نفسها فى أحضان هذا الصديق الحميم المعين ، وإنما ظلت متجهة إلى فرنسا تستعينها على ما أخذت به من أسباب الحضارة الحديثة ؛ فقد كان اعتماد محمد على الكبير وخلفائه على الفنيين الفرنسيين فى شؤون الحرب والرى والصناعة والزراعة أوضح من أن يحتاج إلى بيان ، وانتهى هذا كله بما كان من إنشاء قناة السويس ، وبما كان من احتيال البريطانيين حتى ظفروا بنصيب من أسهم هذه القناة وأصبحوا يستطيعون أن يقولوا كلمتهم فى شؤون هذه الشركة .

والظاهر أن ظروف الشرق الأدنى ونشاط الفرنسيين وفتور المصريين فى التقرب إلى الإنجليز واختلاط الشؤون المالية فى مصر ، كل ذلك قد أعان على انقضاء الطور الأول من أطوار الصلة بين الشرق الأدنى وبريطانيا العظمى ، وهو طور التودد من بعيد والمحافظة على مصالح الإنجليز فى حزم وعزم ويقظة ، ولكن فى أناة وتحفظ واحتياط . حتى إذا جد الجدّ وأصبحت مصر بعد احتفار القناة وتقريب المسافة بين الشرق والغرب نقطة الخطر الحساسة فى طريق الإمبراطورية البريطانية ، رأينا الإنجليز ينتهزون الفرص حينا ويخلقونها أحيانا ، حتى إذا واتتهم الفرصة أغاروا على مصر ليقمعوا الثورة فيها ويردّوا الأمن إلى نصابه ، ثم ليعودوا بعد ذلك من حيث أقبلوا . ولكنهم قمعوا الثورة وأقروا الأمن وأعجبهم الجو فاقاموا وما زالوا مقيمين إلى الآن .

وكذلك بدأ الطور الثانى من أطوار الصلة بين البريطانيين والشرق الأدنى

فى هذا العصر الحديث ، هذا الطور الذى يمتاز بالتدخل المباشر فى أدق الشؤون المصرية وبمراقبة شؤون البلاد الشرقية العربية الأخرى من قرب . حتى إذا كانت الحرب العالمية الأولى ظهر للإنجليز وحلفائهم أن بريطانيا العظمى قد عرفت كيف تحتاط لمستقبلها وأحسنت انتهاز الفرصة ؛ فقد سيطرت أثناء الحرب على طرق المواصلات الإمبراطورية وضمنت وسائل نقل الجند والمؤونة ، وساهمت بذلك أعظم مساهمة فى كسب الحرب وتحقيق النصر .

وفى هذا الطور كان التدخل البريطانى فى الشؤون المصرية خاصة والشرقية عامة قد أخذ يغير قلوب الشرقيين وميولهم نحو الإنجليز ونحو الفرنسيين جميعاً . فلم تكن بريطانيا العظمى فى هذا الطور هى الصديق الذى ينظر من بعيد ويظهر الاستعداد للمعونة والتأييد حين يحتاج الشرق إلى المعونة والتأييد ، وإنما كانت خصما معتدياً يحتلّ قلب الشرق الأدنى ويتحكم فيه وينتهز الفرص لبسط سلطانه على البلاد المجاورة . وأخذت فرنسا مكان بريطانيا العظمى ، فأصبحت صديقاً حميما ليس له مطمع سياسى ، لايحتل أرضاً ولايتدخل فى شؤون الحكم ، وإنما يظهر العطف ويلوّح بالتأييد . وجعل المصريون والشرقيون يخاصمون بريطانيا العظمى خصاماً يختلف قوة وضعفا باختلاف الظروف ، ويستعينون فى هذا الخصام بعطف الصحف الفرنسية وتأييد الكتّاب الفرنسيين ، حتى بعد أن تم الاتفاق الودى بين الدولتين فى أول هذا القرن . ولكن الحرب العالمية الأولى ختمت هذا الطور وأنشأت طوراً ثالثاً للصلة بين بريطانيا العظمى والشرق الأدنى يمكننا أن نسميه طور العنف . بدأته بريطانيا العظمى باعلان الحماية على مصر فى أواخر سنة ١٩١٤ ، ثم استمر بعد الحرب يأخذ أشكالا مختلفة من العنف واللين ، ومن القرب والبعد ، ولكنه يمتاز بشيئين خطيرين : أولهما أن سلطان بريطانيا العظمى الفعلى قد عظم واتسع ، ففرض الانتداب البريطانى على فلسطين وشرق الأردن والعراق . وكذلك لم تبق بريطانيا خصماً لمصر وحدها ، وإنما أصبحت خصماً لأقطار مختلفة من أقطار الشرق العربى .

الثانى أن فرنسا لم تحتفظ بموقف الصديق الذى يعطف من بعيد دون أن يبتغى منفعة أو يحقق مأرباً ، وإنما شاركت فى الغنيمة ففرضت انتدابها على سوريا ولبنان. وجعل الشرق العربى ينظر إلى الدولتين الغربيتين نظرة متقاربة ، يرى فيهما خصما

قد اعتدى على حريته وحال بينه وبين ما كان يطمح إليه ويطمع فيه من الاستقلال.

وهنا ظهر التفوق البريطانى ومهارة السياسة البريطانيين فى سياسة الأمور الخارجية. فجعلت بريطانيا العظمى تعالج مشكلات الشرق العربى عنيفة مرة ورقيقة مرة أخرى، ولكنها صابرة ومصابرة دائماً، حتى ختمت هذا الطور الثالث بحل شىء من هذه الجزئيات حلا جزئيًا؛ فألغت حمايتها على مصر أولا، ثم مازالت تداور وتناور حتى انتهت بعد خطوب كثيرة إلى إمضاء المعاهدة البريطانية المصرية سنة ١٩٣٦، وألغت الانتداب فى العراق وعقدت معه معاهدة أيضاً، ولم تحتفظ بالانتداب إلا فى فلسطين وشرق الأردن. وفى أثناء ذلك كانت فرنسا تضطرب فى سياستها الشرقية اضطراباً خطيراً أقل ما يوصف به أنه لم يكن حازماً ولا عازماً ولا مخلصاً. جعلت فرنسا تقدِّم رجلا وتؤخر أخرى، تفرق لتسود، وتسود لتفرق، تظهر الإسماح حيناً ثم لا تلبث أن تعود إلى الأفق الضيق العنيف، تعرض المعاهدة ثم لا تلبث أن ترفضها. وبذلك فقدت السياسة الفرنسية ثقة الشرق العربى بها واطمئنانه إليها، وكسبت سوء الظن بها وشدة الشك فى صدق نياتها.

وأقبلت الحرب العالمية الثانية، فاذا بريطانيا العظمى مطمئنة إلى الشرق العربى، وإذا الشرق العربى مطمئن إليها، قد أرضته بعض الرضا وأطمعته فى الرضا الكامل متى وضعت الحرب أوزارها. وكان لحسن الصلة بين الشرق العربى وبريطانيا العظمى أثر غير قليل فى الاحتفاظ لفرنسا بمكانتها فى هذا الشرق. وقد كانت فرنسا حليفة لبريطانيا العظمى، ووفت بريطانيا العظمى لحليفتها بعد المحنة وفاء لا شك فيه، كما وفى الجنرال دى جول وأصحابه للحليفة العظيمة وفاء لا شك فيه أيضاً. واستطاع الحلفاء البريطانيون والفرنسيون أن يطردوا النفوذ المحورى مع السلطان الفيشى من سوريا ولبنان. وعاش الشرق العربى كله على الوعود والأمانى من جهة، وعلى الثقة بتحقيق الوعود والأمانى من جهة أخرى متى وضعت الحرب أوزارها. وأدى الشرق العربى ثمناً غالياً جدًا لما عاش عليه من الثقة والوعود والأمانى، فضحى بكثير من مرافقه، وأعان بكثير من جهوده، واتخذ المحور لنفسه عدوًا وعامله كما يعامل الأعداء، واكتأب وابتأس حين كانت الدوائر تدور على الحلفاء، واغتبط وابتهج حين استوثق لهم الأمر وتم لهم هذا النصر العظيم.

وبذلك انتهى هذا الطور، وبدئ بانتهاء الحرب الثانية طور جديد تضمره الأيام ولم يتكشف عنه الغيب بعد. أيكون طور وئام وسلام وتعاون، أم يكون طور صراع وخصام واختلاف ؟ جواب هذا السؤال عند البريطانيين أنفسهم ؛ فهم يعلمون حق العلم أن الشرق العربى ما زال لهم مكبراً وبهم واثقاً وعليهم عطوفاً. وهم يعلمون أن الشرق العربى قد عرفهم أكثر مما عرف غيرهم، وألف التعاون معهم أكثر مما ألفه مع غيرهم. وهم يعلمون حق العلم أن الشرق العربى لا يضمر لهم شرًّا ولا يكيد لهم كيداً، ولا يجب شيئاً كما يحب تنظيم الصلة بينه وبينهم على أساس من تبادل الود والثقة والمنافع القريبة والبعيدة. ولكنهم يعلمون فى الوقت نفسه حق العلم أن طبيعة الشرق العربى قد استردت صفاءها القديم ونقاءها الذى نعمت به فى وقت من الأوقات، وأن نفس الشرق العربى قد استيقظت من نومها ونشطت بعد فتور، واستردت شعورها القديم فى العزة والكرامة، وأصبحت لا تطمئن لأن تكون تابعة، ولا ترضى بأن تكون مسودة ولا تستقر إلا إذا ظفرت بحقها الكامل فى الحرية والكرامة والاستقلال، وبنصيبها الكامل من العدل السياسى الدولى، لتفرغ لتحقيق العدل السياسى والاجتماعى فى داخل أقطارها. وليس بينها وبين غايتها هذه الكريمة إلا عقبة واحدة، هى أن تفهم بريطانيا العظمى ويفهم معها حلفاؤها أن قيم الأشياء لم تتغير بالقياس إلى الغرب وحده ولا بالقياس إلى الأقوياء وحدهم، وإنما تغيرت بالقياس إلى العالم المتحضر كله، وأن أمم الشرق العربى قد انتهت من الرشد السياسى والثقة بالنفس والاعتماد على الجهد الخاص إلى حيث لا تستطيع أن تفهم حياة سياسية لا تحقق لها حريتها واستقلالها.

وقد كان نظام الاحتلال والتسلط السياسى شيئاً يمكن الاعتذار عنه قبل الحرب الماضية وبين الحربين، فأما الآن وقد تقرر نظام الأمن الاجماعى، وأصبحت الأمم المتحدة كلها ضامنة لاستقلال الأمم المتحدة كلها، فلم يبق للاحتلال ولا لسياسة التسلط معنى يمكن فهمه أو الاعتذار عنه. والخطر كل الخطر أن يحتفظ المنتصرون بتلك العقلية التى كانت تخيل إليهم فيما مضى أن من الممكن بذل الوعود والنكول فى التنفيذ ؛ فقد أصبح هذا النوع من المزاح السياسى غير سائغ ولا محتمل.

ولبريطانيا العظمى مصالح اقتصادية وثقافية هائلة فى جميع أقطار الأرض

وفى أقطار الشرق العربى خاصة . وأحسن وسيلة للمحافظة على هذه المصالح وتنميتها إنما هى الثقة المتبادلة والتعاون الصادق . وأعتقد أن من الممكن بل من الخير بل من اليسير جداً أن تبلغ بريطانيا العظمى بالثقة والمودة والاحترام المتبادل من تحقيق هذه المصالح وتنميتها كل ماتريد .

وما أشك فى أن الشرق العربى كله لايتمنى شيئاً كما يتمنى أن تلغى المشكلات السياسية بينه وبين الغرب عامة ، وبينه وبين بريطانيا خاصة ، وأن يستأنف عهد جديد تستقل فيه الأوطان العربية استقلالا كاملا صحيحاً ، وتعمل فيه مع الأمم الغربية ، وفى مقدمتها بريطانيا العظمى ، على ترقية الحضارة الإنسانية وتقوية الصلات الثقافية ، وتنمية التبادل الاقتصادى ، وتحقيق هذا التعاون الخصب الذى ينتج للناس نفعاً وسلماً وأمناً ، ويجنبهم أخطار التنافس الذى يقوم على الأثرة والكيد والمكر وسوء النية .

ولتحقيق هذه الغاية العليا ، يجب أن تخطو بريطانيا العظمى خطوة حازمة جريئة . وكل شىء يدل على أن الشعب البريطانى يود لو يخطو هذه الخطوة ، فيخلى بين أمم الشرق العربى وبين حقها الكامل فى الاستقلال ، ويلغى هذه المشكلات التى إن دل بقاؤها على شىء فانما يدل على أن الغرب لم ينتفع ، أو لا يريد أن ينتفع ، بهذه الدروس القاسية التى ألقتها الحرب العالمية الأولى ، والحرب العالمية الثانية على الناس . وويل للناس إذا قدمت إليهم الموعظة ، ولم يتعظوا ، وأهديت إليهم العبرة فلم يحسنوا الاعتبار .

طه حسين